

كلمة الدكتور إبراهيم الجعفري في احتفالية التحالف الوطني لقوى الانتفاضة في  
العراق بذكرى استشهاد السيد محمد باقر الصدر  
2012/4/7

بسم الله الرحمن الرحيم  
السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته..  
قال الله (تبارك وتعالى)، في محكم كتابه العزيز: ((وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ  
اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ  
وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)).

أحوج ما تكون الأمة في الظروف الصعبة إلى الأبطال الذين يقودون المسيرة، وكل  
أمة من الأمم، وكل شعب من الشعوب يتطلع دائماً إلى القيادات المخلصة المتفانية  
التي تتقدم المسيرة والأبطال في مثل هذه القيادات هم الذين يسجلون، ويسطرون  
بطولاتهم على مستوى الفكر والمواقف والتضحية.

كلما تألق نجم الشهيد، وبرع ببطولته وقيادته كانت الأمة بأمر الحاجة إليه؛ ليكون  
المحرك لعجلتها؛ لذا فالشهيد ليس فقط تعبيراً عن شجاعة تاريخية انطوت مع الزمن  
إنما هو صوت هادر يمتد على مرّ الأجيال والعصور، وكلما اشتدّت الظروف،  
وعصف الرياح يُطلّ الشهيد البطل بهامته في علياء القرب إلى الله (تبارك وتعالى)،  
ليواصل مسيرته في عقل الأمة وقلبها.

إحياء ذكر الشهيد بحجم السيد (محمد باقر الصدر) عملاقاً في الفكر، وخُلُقاً نبوياً  
رائعاً يملأ وجدان الأمة في كل جوانبه.. السيد الصدر كان فرداً متسعاً لأمة، فيما  
اختزن بعقله من فكر، وما عبق به قلبه من مشاعر وإحاسيس.. محمد باقر الصدر  
قدّم لنا نظرية كاملة لبناء دولة تقوم على أساس مجتمعي، وبدأها منذ الشوط الأول،  
ولم يُطلقها شعاراً فارغاً إنما أسّس على نظرية معرفية كتبها أنامله والموسومة:  
(اقتصادنا، وفلسفتنا)، وكان يزعم كتابة مجتمعنا، فترك بواكير أفكار مجتمعنا في  
محاضراته القيّمة في تفسير القرآن الكريم.

(محمد باقر الصدر)، فكّر جيداً كيف يحوّل هذا الفكر إلى ممارسة عملية، فبدأ  
يخاطب جيله والأجيال اللاحقة.. كيف يخاطب النساء والرجال، الكبار والصغار،  
يخاطب المثقفين، وغير المثقفين؛ حتى ينهضوا بمشروع دولة بعد أن استفاقت الأمة،  
وعادت مرة أخرى إلى رحاب السماء من جديد.. (محمد باقر الصدر)، كان بطلاً  
حين صنع الكلمة، وأطلقها، وكان بطلاً حين ضحّى من أجل الكلمة، وسأومه ألام  
السلطة بأن يعرضوا عليه الدنيا بما رحبت من أجل أن يتراجع، فأبى إلا أن يواصل  
مسيرته المظفّرة، فطرحوا عليه ثلاثة مطالب: أن يفتي بتحريم الانتماء إلى حزب  
الدعوة الإسلامية، وأن يفتي بجواز الانتماء إلى حزب البعث، وأن يفتي بإدانة

الجمهورية الإسلامية، فرفضها جميعاً، ثم ساوموه على واحدة من هذه الثلاث: إما أن تحرّم الانتماء إلى حزب الدعوة، وإما أن تجيز الانتماء إلى حزب البعث، وإما أن تدين الجمهورية الإسلامية، أبى أن يعطي أي نقطة من هذه الثلاث؛ ليعلمنا أن الكلمة عَصارة فكر، وعصارة دم، ومن يريد أن يرتقي إلى مستوى الكلمة فلا بد أن يوشح كلمته بإكليل الدم.. لا بد أن يكون قوياً ووفياً، فاستحق الصدر أن نقرأه مرتين نقرأه كلمة وموقفاً، ونقرأه مداد قلم وعصارة دم.

لم يكن من الشهيد الثاني (محمد محمد صادق الصدر)، إلا أن يواصل مسير الصدر الأول، فيتوشح ببردة الشهادة، ويعتلي المنبر، ويلتحق بأستاذه السيد الشهيد الصدر الأول.. هكذا كلما تقدّمت المسيرة شعرت بهذه المصادقية الرائعة.. شعرت الأمة بحاجتها الملحة للمرجعية التي ترعى مسيرة الأمم، وتمدّها بالفكر والمواقف والتسديد، وتمدها بالدم حين يقتضي الموقف.

في مثل هذه الأيام من عام 2003 سقط صنم بغداد الذي بدا على السطح أنه بفعل القوات الأجنبية غير أن صنم بغداد سقط بفعل عراقيّ وطنيّ شريف ومخلص منذ أمد بعيد.. منذ اعتلى حزب العمالة عام 1968، وربض على صدر بغداد الحبيبية، وربض على صدر العراق.. بدأ الشهداء يتقدمون قوافل من أجل التخلص من هذا النظام المقبور قبل أن تندلع ما يسمى حرب الخليج الأولى، وانتهت الحرب، وبقي الشعب يقدر أبناءه قرايين على مذبح الحرية، وبدأت حرب الخليج الثانية عام 1991، واستمرّ شعبنا بالنضال من أجل التخلص منه، وانتهت حرب الخليج الثانية، ولم تنتهِ المسيرة المظفرة لأبناء شعبنا حتى سقط، ولو لم يعقد شعبنا العزم على إسقاط النظام المقبور ما استطاعت كل جيوش الدنيا أن تتخلص منه.

يوم سقط دكتاتور بغداد سقطت الدكتاتورية برُمّتها وليس ك(ستالين، وهتلر، وموسوليني، وتيتو، ونادر شاه).. صدام أوغل بالإجرام، وأشاع الموت والقتل بأبناء العراق في كل المحافظات، ولم يترك طريقة يتفنّن فيها بإنزال الموت على أبناء شعبنا إلا استخدمها.. حصدت الانتفاضة الشعبانية 350 ألف إنسان دُفِنوا أحياء في مقابر جماعية (نساء حوامل، وشباب، وشابات، وشيوخ، وعجائز، وأطفال رُضّع)، كلهم طُمروا أحياء، ووارى عليهم التراب، والعالم أصابه الخرس، ولم تكن ملحمة شعبنا في الانتفاضة الشعبانية بعيدة عن الملحمة التي سطرّها أبناء شعبنا الكردي في كردستان في حلبجة والأنفال، وكذلك الانتفاضة في الأنبار التي استشهد فيها الشهيد محمد المظلوم (رحمة الله عليه).

حين حكم صدام العراق بطش بأبنائه، وأشاع ثقافة الموت، وفرط بالالاقتصاد، وحول العراق من أغنى بلدان العالم إلى أفقر شعب، أبى إلا أن يكون الرجل الوحيد حزبياً وعسكرياً وحكومياً وسياسياً، وكأنّ رحم العراق كان عقيماً عن أن يُنجب قادة مخلصين ليس مثله إنساناً مزيّفاً، وعلى الرغم من ذلك واصل شعبنا. سقوط صنم

بغداد ليس سقوطاً فقط يسجّل العراق فيه انتصاراً باهراً إنما سجّلت بذلك كل شعوب المنطقة، بل كل أحرار العالم سجلوا انتصاراً بالتخلص من هذه الدكتاتورية المقيتة.

يتساءل البعض ممن عاشوا على فتاته، ويصفونه بعض الأحيان بأنه ضحى من أجل شعبه: أي جريمة أشد من إجرام هذا الرجل الذي ما تخلص من سيف إجرامه حتى أقرب المقربين إليه حتى بناته حتى الكثير من الشخصيات من داخل حزب البعث لم يسلموا من بطشه، ومن كيده.

في مثل هذه الأيام نعيش وإياكم العرس الوطني الذي امتزج بالعرس الإقليمي فقبل فترة كنا وإياكم قد عشنا رحاب بغداد، وقد ازدانت بالوفود التي أمّت بغداد، وعادت إلى بغداد ليس فقط عودة جغرافية وإنما عادوا إلى بغداد فكراً وتاريخاً وحاضراً ونمطية حكم.. عادوا إلى بغداد؛ ليجدوها تعبيراً عن إرادة الشعب العراقي يتسع لهم جميعاً.. اتسعت بغداد لكل القادة العرب الذين جاؤوا إلى هنا.. احتضنتهم سواء الذين عبّروا عن إرادة شعوبهم، وما عصفت بسالفهم رياح التغيير، أو الحكومات التي بدأت فعلاً تراعي شعوبها.. وجدوا في بغداد حضناً يتسع لهم جميعاً...

حين استقبلت بغداد هذه الوفود لم تستقبلهم فقط لأن الدورة في القمة العربية على الأحرف الأبجدية، وقد حان وقتها في بغداد، إنما لأن بغداد التي أسقطت الدكتاتورية، ولم تتمّ العقد الأول من عمرها بعد سقوط الدكتاتور قد مرّت بها أربع حكومات بطريقة سلمية.. بغداد احتضنت، وقدمت نموذجاً للعمل السياسي حيث كل القوى السياسية تتواجد في البرلمان، وكل المجتمعات العراقية من خلفيات قومية أو دينية أو مناطقية يتواجدون تحت سقف البرلمان.. كل القوى السياسية تشترك سوية في صناعة بغداد الجديدة، ولا يوجد في العراق حاكم متأبّد إلى الموت، ولا يوجد في بغداد حاكم يرث عن أبيه الحكم، أو يورث ابنه الحكم.

بغداد جديدة بواقعها تناغم تلك الأصوات التي أطلقتها حناجر الربيع العربي في كل مكان.. طاغوت مصر، وطاغوت ليبيا، وطاغوت تونس، وبقية الطواغيت عزموا على أن يبقوا في الحكم حتى الموت، ثم يخلّفوا، ويورثوا أبناءهم بعد ذلك.. بغداد تقدّم نموذجاً جديداً.. بغداد تقدّم المرأة كنموذج أخذ دوره في العمل السياسي كما أخذت دورها في بناء المؤسسات الأخرى، ومثلما تقدّمت المرأة في مجالات التضحية والاستبسال حين سُجنت، وعُذبت، وطُردت، واستشهدت المرأة اليوم في العراق الجديد تأخذ دورها في بناء العملية السياسية سواء كان في البرلمان العراقي أما المشاركة في الحكومة فقد وصلت إلى حدّ ست وزيرات في الحكومة الانتقالية عام 2005، ونحن نعتقد أن العراق من جملة ما شهد من تطوّرات هو تطوّر التعامل مع المرأة، وبذلك قدّم صورة إنسانية رائعة لكل مجتمعات العالم، وتفوّقت على الكثير من المجتمعات والبلدان لأنها تجاوزت الكثير من عُقد الماضي...

قبائلنا اليوم مثلما تنتشر بأنّها تقدّم الشهداء تنتشر أنّها تقدّم أبناءها وبناتها في البرلمان وفي العمل السياسي؛ وبذلك لا يُعدّ زعيم القبيلة منكوس الرأس حين تكون ابنته في المؤسسة الاجتماعية إنّما الذي يجعله منكوس الرأس هو الفساد إذا وقع به ابنه أو وقعت به ابنته.

ليست المشكلة أن يكون للإنسان بنت موظفة، أو له بنت تعمل عملاً سياسياً، إنّما الخزي والعار حين يكون المتصدّي رجلاً أو امرأة واقعاً في حضيض الفساد وهدر الثروة؛ لذا نفخر بأبنائنا وبناتنا عندما نسمع أصواتهم في مختلف منظمات التعاطي السياسي، وهم يساهمون في بناء العراق الجديد، ويُسمعون صوت العراق إلى كل العالم رغم الخناق الذي يحاول أن يضيقه الآخرون، ورغم الحصار والغيتو الذي تفرضه بعض القنوات الإعلامية على العراق نجد أن أبناءنا وبناتنا يصدحون بصوت العراق الحبيب.

استشهاد السيد الصدر، وسقوط صنم بغداد، وعقد القمة العربية في بغداد محاور نكون فيها على موعد مشترك بضرورة التعامل مع هذه الآفاق الجديدة، والانسجام بحركتنا مع الآفاق العربية انسجاماً حقيقياً، وينبغي أن نتحرّك في الأفق العراقيّ الوطني؛ حتى نتقدم بالعملية السياسية أشواطاً على طريق التكامل.

عقدت القوى السياسية عزمها على أن تلتقي تحت عنوان (الملتقى الوطني)، وأرادت بذلك أن تتعرّض لكل النقاط، وما تحقق بعد من أهداف وطموحات عراقية كما إنّها تواجه التحديات والمشاكل المتبقية والتي دوّرت عبر السنوات الأخيرة، ولم تحلّ بعد..

التحالف الوطني قدّم مشروعاً، وحظي بقناعة القائمتين قائمة التحالف الكردستاني وقائمة العراقية، واتفقنا على الخطوط الأساسية قبيل مؤتمر القمة وحرصاً منا على أن لا يكون ذلك على حساب النجاحات الباهرة التي انتهت إليها مؤتمر القمة العربي، فأرجأنا تفاصيل الملتقى الوطني إلى ما بعد القمة، ونحن الآن نعدّ للدخول في هذه التفاصيل.

ندائي ونصيحتي لكل قوة سياسية أن تتحلّى بالمعايير الوطنية، وتجعل الربح الحقيقيّ ليس ربح الكتلة أو ربح الشخص إنّما ربح العراق؛ حتى يبقى العراق متقدماً مزدهراً باقتصاده وأمنه ومجتمعه، ويستثمر ما حياه الله (تبارك وتعالى)، من الثروات المتعدّدة، ويبقى العراق متقدماً خصوصاً أنه قد عاد إلى الصف الأمامي، وأصبح ملتقى الوفاق العربي، وملتقى الأخوة العربية، وكلهم يتطلعون إليه من خلال رسدي لكلمات المسؤولين في مؤتمر القمة العربي والذين أكدوا من دون استثناء أنهم مسرورون بما حققه العراق حين عاد إلى الصف العربي، بل في مقدّمة الصف العربي.

لا يكفي أننا حققنا إنجازاً على مستوى البداية، بل لابد أن نتواصل أكثر فأكثر، ولا بد أن تتحوّل هذه المناسبات إلى أجراس تدقّ في ذاكرتنا في عالم النسيان، بأننا ينبغي أن نتواصل، ونكون أوفياء لمبادئنا وقيمنا، ونجعل من الشهداء نبزاساً وقذوة لنا في مواجهة التحديات.

أتمنى لكم ولكل أبناء شعبنا وبناتنا كل الموفقية في خدمة العراق الجديد، والمساهمة في بنائه.  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الدكتور إبراهيم الجعفري في مجلس النواب في ذكرى استشهاد السيد الشهيد  
محمد باقر الصدر (قدس)  
2012/4/9

بسم الله الرحمن الرحيم  
السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته..  
قال الله (تبارك وتعالى)، في محكم كتابه العزيز:  
(مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ  
يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)).

كثر ما استهوتني بعض الكتب، بأن أقرأها أكثر من مرة، ك (لمحات عن تاريخ العالم) لأنديرا غاندي، الذي كتبته عن أبيها جواهر لال نهرو، وكتب أخرى قرأتها، وعُدت إلى قراءتها مرات ومرات، وحين أعيد قراءتها أجدها في المرة الأخيرة ليست بالقوة التي استهوتني في المرة الأولى، ولا أظن أن الكتاب هبط بمستواه غير أنني من موقع اكتساب الثقافة، حين أقرأ الكتاب في مرحلة متأخرة من عمري أجد أن الكتاب ليس بالمستوى الذي رأيته حين كنتُ شاباً صغيراً باستثناء كتب السيد الشهيد محمد باقر الصدر، ومنها كتاب (اقتصادنا)، الذي درسته في عام 1965، وامتحنت فيه، وكلما أقرأه ازداد إعجاباً، واكتشف أن هذا الرجل ادّخر في نتاجاته الفكرية سواء كان على مستوى الفلسفة، أو الاقتصاد، أو الأسس المنطقية للاستقراء، أو السنن أو التفسير الموضوعي، أو علم أصول الفقه أو الفقه؛ لتبقى حياة طرية على مختلف الأجيال والأزمان، وقرأتُ سيرة الكثير ممن ضحّوا في تاريخ الأمم: (عبد القادر الحسيني الجزائري، عبد الكريم الخطابي، عز الدين القسام، الشهيد حسن البنا، الشهيد سيد قطب، الشهيد عمر المختار... وغيرهم)، إلا أنني حين أقرأ عن السيد محمد باقر الصدر أجد أنه كان استثناءً.

لقد كان السيد الشهيد قَمّة في الكتابة والتنظير والتنظيم، لكن قَمّته في التضحية علت على كل القِمَم؛ لذا على الإنسان أن يقف إجلالاً واحتراماً لإحياء شخصية بعظمته، أجد أن الكلمات في أول مرة بالنسبة للأدب المعاصر تتصاغر أمام عظمة السيد محمد باقر الصدر، وأملّي أن يقرأه الآخرون ليس فقط من منظور مذهبي أو إسلامي أو عربي، إنما يقرؤه من موقع إنساني، ولو كان الوقت يتسع لحشدت لكم بعض المشاهد لما قاله لي، أو ما قرأته مما قاله الكثير من المفكرين العرب والمسلمين وغير المسلمين.

محمد باقر الصدر لم يختزل العراق بعقله، لكنه استطاع أن يتسع للعراق كله.. اتسع لكم جميعاً، خاطب العمق الكرديّ، وحرّم الاستهزاء والنكات التي شاعت في وقته بالوسط العراقي تجاه إخوتنا الكرد، فأفتى بحرمة استخدام النكتة على أي كردي،

محمد باقر الصدر انطلق من النجف، ومن عائلة شيعية، ومن حوزة علمية غير أنه قرأ لفكتور هيغو، وويل ديورانت، وقرأ نظرية القيمة في كتاب (رأس المال)، ونقدها نقداً رائعاً وباهراً.. محمد باقر الصدر اتسع إلى كل المذاهب والديانات؛ ومن حقه علينا أن نقف إجلالاً وتقديراً واحتراماً لهذه الشخصية الفذة التي قرنت الكلمة بالدم، والمفهوم بالمصادقية، نعم.. كان صادقاً مع ربّه، وصادقاً معنا جميعاً، هذا العملاق استشرّف المستقبل منذ نهاية الخمسينيات، وتحدّث بلغة قطعيّة بأن الماركسية آيلة للانحيار، وقد ثبت ذلك في البروسترويك التي كتبها غورباتشوف عام 1985، وكذلك لمّح إلى التداعيات التي تنتاب الفكر الرأسماليّ، وما هي الأزمة الاقتصادية اليوم في المعسكر الرأسماليّ تؤكد ما قرأه السيد الصدر منذ ذلك الوقت.

من الظلم أن لا نقرأ مفكرينا وهم بهذا الحجم، وإذا قرأناهم فنقرأهم من حيّز عاطفيّ وطائفيّ مؤدّج محكوم بخلفيات.. من الظلم أن تنجب الأمة هذا العملاق، ويضيق بعضنا البعض الآخر..

ثم أكمل الدكتور الجعفري كلمته متسائلاً باستتكار بعد بيان قرأه التحالف الكردستاني بمناسبة ذكرى فاجعة حلبجة، طالب فيها الحكومة العراقية بتقديم اعتذار عن ما ارتكبه نظام صدام من جرائم.

لماذا نختلف ونحن نتحدّث عن شخص نظر إلى وحدتنا، وتفانى من أجلها... هل هذا هو الوفاء... إن من أدنى درجات الوفاء والعرفان بالجميل أن نحقق طموحات هؤلاء العباقرة... المشترك بيننا كبير.. أقول لكم كلمة اقبلوها مني: اعتذرت ألمانيا إلى العالم حين أساءت في زمن هتلر في عام 1933 عندما تسلط الحزب النازي؛ لأن الأمة الألمانية انتخبت هتلر، وانتخبت الحزب النازي؛ فعبر هتلر عن إرادة الأمة الألمانية بأكبر انتخابات ديمقراطية في العالم الأوروبي، وجاء بـ 78.8%؛ لذا فعلى ألمانيا أن تعتذر سواء قبلت بجرائم هتلر أم لم تقبل فقد ارتكبتها، وهو يمثل إرادة الشعب، لكن استنساخ هذا في العراق يُعدّ قياساً مع الفارق؛ فالشعب العراقيّ لم ينتخب صدام، وقد قلّت للمجتمع الكويتي: إن صدام الذي احتلكم احتلنا قبل أن يحتلكم، وسرق أموالنا قبل أن يسرق أموالكم، واعتدى على حرائرنا قبل أن يعتدي على حرائركم.. فمن يعتذر لمن؟

الحاكم الذي يمثل سيادة العراق اليوم كرديّ، وهو الأخ جلال الطالباني وإقليم كردستان يترأسه كرديّ في أول أطروحة للأقاليم الفدرالية ... مع من نتحدث نحن، وعلامٌ نتشاجر... نحن وإياكم كنا مستهدفين من قبل النظام السابق، وأبلغ ردّ على ذلك هو إن هذا الإنسان لا يفهم أن الشعب العراقيّ، ومن يمثل الشعب العراقيّ كان بشكل أو بآخر قد ارتبط بإرادة النظام السابق.

دعونا نقف صفّاً واحداً، ونتبرّأ جميعاً من هؤلاء، ونردّ على تلك الثقافة السيئة بوحدة الصف والكلمة، سواء كنا من دين واحد، أو من أديان متعددة، أو مذاهب، أو قوميات، أو مناطق أو اتجاهات سياسية.

صدام لم يستثن أحداً منكم.. اقرأوا صفحات الجرائم، وقد عقدنا مؤتمر جرائم صدام في بلدان المهجر. انتهينا إلى أنه لم تنجُ شريحة اجتماعية منه.

استثمر هذه المناسبة؛ لأقول لكم: قدّمنا نموذج لقمة الفكر، ارتبطت بقمة التضحية؛ فكان محمد باقر الصدر، وقدّمنا نموذجاً لقمة المرأة التي تقدّمت أدبية شاعرة فقيهة مجاهدة منظرّة مربية، ومؤسسة للمجتمع المدني في العراق حتى توشحت مسيرتها المباركة بإكليل الدم.. تلك هي آمنة الصدر أخت الشهيد محمد باقر الصدر.

تحية لكل الشهداء، وأبلغ شيء نعبر به عن مشاعرنا هو هذه الوقفات الرائعة التي انتظمت قبل قليل... لنقف سوياً مثلما نقف لشهيدنا الفذ الصدر، وكذلك نقف للشهداء الذين خرّوا صرعى في الأنفال وبحلبجة، وشهداء العراق من كل المذاهب والديانات والقوميات.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.